أربعة من الريف

قصة بقلم علي بدور

بين اليوم واليوم اجدني في عيادة احد اصدقائي الاطباء، نتحدث في الادب والفن ، ونستعرض شؤون السياسة ، ونتسلى بمراقبة الناس من النافذة العريضة المطلة على الشارع العام . كانت زيارتي الاخيرة له ، عصر الثلاثاء ، والشمس تنشر دفئها ، وكان الطقس يفصح عن معاني عديدة من الاغتباط والمسرة، فلما دخلت العيادة وجدت الخادم ، وقد اقتعد كرسيا بجانب المدفأة في غرفة الانتظار ، يقلب بين يديه جريدة صباحية. فوجدتني اسأله :

ـ هل الطبيب هنا يا محمود ؟

ـ لم يأت بعد . تفضل استرح . انه لن يتأخر .

ودلفت الى الداخل واخذت مكاني الى جانب المدفأة ، اطل من وقت لاخر ، مراقبا الشارع من خلال لوح زجاجي شفاف كان يفسح للحياة من تحتي ان تتسرب نقية من بعض اوشابها ، بينما كانت ساعة الحائط تدق، وصرفني عن تأملي فتح باب العيادة، وكان له صرير قاس، فدخله رجل في حدود الاربعين ، ثم تبعته فتاة تبدو في العشرين من عمرها . لقد كانا من الريف . ولم يكد الباب يغلق حتى فتح من جديد معاودا صراخه ، فدخله رجل ثان وامرأة ثانية .. كانا ايضا من الريف . سأل احد الرجلين محمود عن الطبيب وحاول الثاني ان يخطو بضعة خطوات في غرفة الانتظار ثم رفع راسه واخذ يسأل الله مباشرة ان يشفي الفتاة المسكينة ويريحها من اوجاعها .. وعاود ذلك عدة مرات . ولم يلبث الطبيب ان حضر . خلع معطفه وجاء محمود يحدثه عن الزبائن . انهم اربعة من الريف . فيهم فتاة مريضة . وقعد الطبيب برهة اشعل فيها سيكارة . ثم استمهلني دقيقتين ريثما يرى هذه الفتاة الريفية ذات العشرين سنة !!

اثارت هذه الفتاة في نفسي ، خواطر شتى. كانت فارعة الطول ،سمراء، ذات عينين سوداوين تلوح عليها بشائر الريف الضاحكة رغم ما تحاول كتمانه من الامها . ووجدتني اقوم عن مقعدي لانتصب بجانب المدفأة . كانت الحافلات تمر مسرعة ، وكذلك السيارات ، بالاضافة الى مئات من البشر ، متعددة الوانهم وسحنهم ، فلم يصرفني ذلك كله ، لحظة عن الفتاة الريفية التي دخلت غرفة المعاينة اثر الطبيب . ولبث الرجلان ومعهما المراة ، ينتظرون خروجها ، بينما استمر احد الرجلين في سؤال يشبه الصياح كان يطلقه بين الفينة الفينة :

ـ الشفاء يارب .. دواء لهذه المسكينة ، لتستريح من اوجاعها .. بجاه نبيك يا رب تشفيها ..

بينما كانت المراة الملازمة ، متكومة في زاوية الغرفة ، ضائعة بين الصحو والغيبوبة ، ذاهلة ، عن كل من يحيط بها ، شاخصة بعينيها نحو الزجاج السميك الذي كان يفصل فيما بينهما وبين زميلتها ، تسأل حينا بعينيها ، واخر ، بوجودها كله ، حياة جديدة ، مبرأة من كل الم ، لهذه المسكينة التي لم تر من الحياة شيئا .

كان الطبيب قبل ان يدخل غرفة المعاينة قد سأل احد الرجلين ، وهو الاكثر صياحا ، عما يؤلمها ، فقال له :

ـ منذ ان حصدنا يا دكتور .. وهذه البنت تتألم . صار لها سبعة شهور وهي تتألم . هناك ورم في منتهى الفخذ . انها طوال الليل لا تنام يا دكتور . ارسلنا لعندك المختار عبود الهلال . انه صديقك وطمأننا بان الدكتور فريد سوف يعتني بالفتاة . كنا نقول هذا الشهر يزول الالم ... ثم هذا الشهر يزول الالم .. ولكن حتى الان الالم موجود . بل انه يزداد يا دكتور . ارجوك ان تنقذها ... يدخلك الله الجنة !!

وكان ذلك الصوت ما فتيء يسأل الله ان يلهم الطبيب، فيصف لها دواء يشفيها . ولا يزال يذهب بين غرفة الانتظار وحائط غرفة المعاينة ، ثم يعاود من جديد رافعا رأسه حينا ويديه حينا محدقا في وجه الرجل الثاني ببرود .. غير مكترث لهذه الكومة من الحياة الساكنة ، التي تحاول اختراق الزجاج ، الذي كان يحجب عنها كل شيء ، لتقف على دقائق المعالجة ، وتفهم قبل الجميع علة هذه الانسانة التي أقعدها المرض فريسة سهلة من فرائس الالام .

خيل لي ان احساسا بالفضول اخذ يغمرني شيئا فشيئا دون ان ادري سببه ، لقد كانت الايام الماضية التي زرت خلالها عيادة صديقي الطبيب اياما عادية بالقياس الى ما كان يجري فيها .. وما يجري اليوم داخل غرفة المعاينة وخارجها في آن واحد . وشاقني جدا الاسترسال في مراقبة هذه النماذج البشرية .. رجل صامت والاخر يصيح .. وامراة لم تتكلم اية كلمة ... انما تكومت على نفسها ترقب شيئا ما ، لعله خروج الفتاة من غرفة المعاينة ولعله شيء اخر !

وفجاة خرج الطبيب ، مسرعا الى علبة الدخان ، فالهب سيكارة وبدأ يمتصها حتى اخر انفاسه .. ثم حدق في فوجدته قد تغير تماما . كان اذا خرج من معاينة مريض عاد الي كما دخل ، بابتسامته وبشاشته واحساسه العميق بالحياة .. وكان رغم كل شيء لا يفقد صفاءه الذهني كطبيب .. الامر الذي اكسبه هذه الشهرة التي يتمتع بها وسط مدينة حافلة بمئات الاطباء .. اما الان ، فان دخان سيجارته كان يغطي قلقا باديا ، ونفسا مجروحة ، واحساسا بالحياة قد اصابه الم عميق . وصاح الطبيب .. بعد ان فقد صفاءه :

ـ محمود

ـ نعم سيدي

ـ قل لابيها ان يحضر وحده الي !!

حيال مثل هذا التحديد .. وجدتني اخرج الى غرفة الانتظار ، بينما كان الاب يدخل وحده . لم يكن الاب ذلك الذي كان يصرخ محاولا ان يسمع الله .. بل كان ذلك الصامت الذي لم يحرك شفتيه ولو مرة واحدة . ولكنني في غرفة الانتظار الفيت الرجل الذي كان من دأبه الصراخ يحتج على استدعاء والدها قائلا لمحمود :

ـ ابوها اطرش . لا يستطيع ان يفهم حديث الدكتور . ارجوك يا محمود . اخبر الدكتور انه اطرش.

ولكن الدكتور لم يسمع رجاءه .... واستمر يخبر اباها ويسأله . كان الباب مفتوحا .. وكان صوت الطبيب يصل الينا في غرفة الانتظار مسموعا .. ولكنه غير مفهوم . كانت الكلمات

في انعطافها نحونا ، تفقد كثيرا من دلالتها التعبيرية . وتبين لي برغم كل شيء ، جانب من الموضوع .. قد تكون الفتاة طائشة .. قد تكون .. وقد لا تكون . ولذا فان الطبيب يحرص على استنطاق والدها ، وافهامه العلة الحقيقية . ان المها مفتعل ، وقصة عدم نومها ناتجة عن تصرف احمق . ووجدتني بلا وعي احدق في وجه زميلتها الصامت فاخمن انها اكثر معرفة من الجميع .. ان السر في نفس هذه الكومة من الحياة ، تلك التي تخشى ان تتحرك ، فتعبر بتحرك عن سرها الذي خبأته حتى عن ادق العيون . وكان ثمة خيط .. بدأ الطبيب يفتل بدايته في غرفته مع ابيها . وخطرت لي صورة الطبيب وهو يخرج من غرفة المعاينة، فاستطعت ان اخمن سر انطفاء البسمة على شفتيه ، وكذلك عذابه الروحي الذي كان يلوح على سيماه .. وكل مخاوفه التي كان يلقيها على هذه الفتاة التي سوف تلقى مصيرها بمجرد ان تهبط درج العيادة !!

عاد محمود مرة ثانية بعد الحاح الرجل الثاني الى الطبيب يخبره برغبة عمها .. ـ انه عمها ـ وبطرش ابيها . ان اباها لا يستطيع فهم حديث الطبيب . فلما رجع محمود لم يكن وحده . فقال لعمها :

ـ تفضل .. ان الدكتور يريدك انت

كانت الفتاة لا تزال ترتدي ثيابها في غرفة المعاينة . وعينان شاخصتان مثبتتان في وجه قد ركب فوق جثة هامدة ، جثة المرأة التي دخلت خلفها ، وانزوت في ركن من الغرفة ولا تزال . كان والدها رجلا طويل القامة عريض المنكبين ، كبير الوجه ، جامده كقطعة من صخر خلت من اي عرق ينبض بالحياة . لعله وقد زامل الطرش سنين طويلة ، قد فقد اهتمامه بما يجري حوله فنضب احساسه بالحياة ذلك الذي يتجمع كله في وجه الانسان . واضحى غير مهتم اذا خرج هو .. ودخل اخوه بدلا منه .. وكان صوت العم العالي .. كل شخصيته . لقد حدث الطبيب عن رحلة قاموا بها الى دمشق . وكيف دخلوا مستشفى الجامعة السورية وما هي الادوية التي تناولتها المريضة هناك .. وكذلك الادوية التي لم تأخذها بعد .. وهذه الرحلة الاخيرة الى عيادة طبيب هو صديق لمختار قريتهم المدعو عبود الهلال .

خرجت الفتاة من غرفة المعاينة ، واتجهت راسا الى غرفة الطبيب بينما كان عمها لا يزال يتحدث معه . وسمعت الطبيب يناديني ، فدخلت متخذا مكاني الذي قمت عنه . وامامي كان الطبيب والى جانبه عم الفتاة وقد جلس الفرفصاء ، فالفتاة على مقعد من الجلد .. بينما وقفت المرأة الجثة بين الفتاة وابيها الذي كان اشبه بمن جلس في حضرة مثال اوصاه بالسكون العميق . وعاود الطبيب حديثه بعد ان قطعه بالنداء علي :

ـ ليس لهذا المرض دواء . اليوم ليس له دواء ، غدا يجوز ، ولكن ليس له اليوم دواء . اياكم ان تأخذوها الى بيروت او الى مكان اخر . خير مكان لها هو القرية . وخير ما اوصيته من اجلها .. هو الراحة وترك العمل . وان تسلم امرها الى الله .

فتكلم الاب لاول واخر مرة :

ـ ما هو المرض يا خالد ؟

فأجابه خالد ، والفتاة جالسة بجانبه :

ـ سرطان في العظم.. سرطان يا زيدان . الدكتور يهبنا النصيحة، ليس له دواء . والقرية هي المكان الاخير بعد هذه العيادة .. لزينب ..

حدقت في زينب ، بعد ان سمعت كل شيء ولا ادري لماذا اسمعوها اياه .. وبدأت قسمات وجهها تتغير . ارتجفت شفتاها ، ولكنها كانت تقاوم ، ثم اهتز راسها قليلا ، لعلها ارادت البكاء ، خيل الي ان عضلات جسمها قد صعدت الى وجهها لتوقف انسكاب الدمع من العينين السوداوين ، ثم تحركت اهدابها كجناح حمامة مقيدة اقتربت النار منها .. ثم اهتزت اجفانها ، وانهمر الدمع في صمت ، كالمطر ، دون اية جلبة .. فلم يشعر احد انها بكت الاي . ووضعت انفها بين اصابعها وضغطت عليه ، ثم مسحت اصبعها بطرف كمها الاسود بينما كان الحديث عن السرطان الذي ليس له دواء يتكرر بين عمها والطبيب ، اما ابوها فبعد ان سمع الخبر من عمها لم يتغير في وجهه ذلك الجمود الازلي ، بل اكتفى بان غطى وجهه براحتيه برهات ، حاجبا اياه عنها ... وكذلك فعلت المرأة الجثة . انها لم تنفعل قط . ولم ادر اذا كانت هي الاخرى صماء .. حتى بدت عاجزة عن المشاركة بأبسط المشاعر !!

قام الطبيب الى خزانته يستعرض المجلدات الضخمة باحثا لزينب عن مهديء يتيح لها النوم بلا الم . كانت المجلدات فارغة من اي مداول علمي لدواء مضاد لمرض السرطان في العظم الذي تشكو منه زينب . وبينما كان الطبيب غارقا في بحران هذه المجلدات، كان القوم ينظرون في فراغ لا حدود له .. هو اوسع من هذه الغرفة المربعة ، واوسع من المدينة ، حدوده عند تلك القرية التي اتوا منها .. وما فيها من اهل واصحاب ، وكنت انتقل ببصري بين وجوههم الاربعة ، وكان بصري يستقر طويلا على وجه زينب ، كان كل ما في وجهها يبكي .. بلا دموع . لقد مسحت كل شيء .. وعلمت الان كل شيء . واستبان لها طريق حياتها القصيرة وسط الالام التي تند عن التصور . وكانت هي الاخرى تبادلني نظرة بنظرة ولم اكن في موقف يتيح لي ان اتكلم .. كنت ابتسم لها فحسب . كان يخيل الي انها مستطيعة بارادتها الخارقة ان تفهم بالابتسامة الطيبة وان تمد لنفسها حبل الرجاء . لقد صدمت بهذه الصراحة الريفية وسمعت بعلتها التي ليس لها دواء.. وانه لمن المشقة ان يستدعي الطبيب والدها اول الامر ثم يستبدله بعمها .. حتى اذا دخلت هي .. كان الحديث يدور عن السرطان في العظم الذي لا دواء له .

اهتدى الطبيب اخيرا الى دواء مسكن ، بعد ان اهتدى الى نظيره ، فخابر احد الصيادلة ليتأكد من وجوده لديه ، فلما اجابه الصيدلي بالايجاب ، بعث محمود لاحضار المسكن ولم تلبث زينب والمرأة الصامتة ان تبعتاه ثم قام ابوها ايضا . لست ادري لم قامت زينب ؟ لعلها تعلقت بامل ضئيل في الشفاء الذي نفاه الطبيب ؟ وتابع الطبيب حديثه موجها اياه الى عم زينب الذي ظل جالسا ينتظر اوبة محمود والمسكن :

ـ ان الاوجاع ستزداد . وسينتقل المرض من منطقة الى اخرى . قد يظهر عند العنق او في الذراع او الظهر . وسوف تموت لا محالة . لقد سبق وماتت بين يدي هاتين ، فتاتان في سن زينب بعد الم لا يمكن وصفه ، كما لايمكن تحمله

ظلت زينب وابوها والمرأة الصامتة في غرفة الانتظار ، بينما مضى محمود لاحضار المسكن . والطبيب يبدي ويعيد في وصف هذه الحالة المستعصية ، والعم صامت ، ولكنه ، وقد ماتت زينب من وجهة نظر العلم في يقينه ، لم يعد يهتم كثيرا بها .. لقد اماتها العلم .. وغدا او بعد غد مصداق ذلك الذي لا يكذب في تنبؤاته قط !! كان الطبيب متألما .. لانه يفشل في معالجة مريض .. والعم يائسا .. لعله الاخر قد تألم للدراهم التي انفقت في طريق لن ينبت فيه ذات يوم ولا عود

انا اسود !

((تحية الى الزنوج في أقطار الارض))

أنا أسود
كالليل .. كظلم الانسان
كدخان الموقد .. كالقار
كاللعنة .. كالاكفان
كالموت ... على الاعواد
كالدمعة .. في الاعياد
فلماذا أحيا .. وأنا أسود ؟!
لا يعنيهم ألمي القاسي
الاسياد ... النبلاء !
البيض .. الاشراف .. العقلاء !
انا في أعينهم ..
.. كالدودة في جوف الارض
بل أحقر مخلوق
فوق الارض

يا رب .. يا رب الانسان
ما ذنبي .. ما ذنب الالوان ؟
ولماذا أحيا .. وانا أسود ؟!

البيض ... الاسياد .. النبلاء !
يا رب البيض .. ورب السود !
اكشف عني الظلمه
ارفع عني الغمه
دعني أحيا
مرفوع الرأس كغيري في الدنيا
لا أخشى خطر التعذيب
لا أرهب قيد السجان
البصقات .. الرفسات .. الضحكات
تتبعني كالظل
تنهال علي كأني شبح الشيطان

فلماذا .. يا رب .. الانسان ؟
ألاني أسود ؟!

أنا اسود كالفحمة
لكني انسان !
وساحيا انسانا ابد الدهر
وطني الارض
وقلبي نبع دفاق بالخير
وانا احر في قلب بلادي
لا احمل حقدا للبيض
لا اضمر شرا للغير
الكل رفاقي
وانا اسعى من أجل الانسان
يا رب .. يا رب البيض .. ورب السود
دعني أحيا
مرفوع الرأس كغيري في الدنيا
لا اخشى خطر التعذيب
لا أرهب قيد السجان
فسأحيا .. وسأحيا .
مع أني أسود !

محمود المحروق

الجمهورية العراقية ـ الموصل

اخضر .. ولكن النظر الى زينب وهما في غرفة الانتظار صامتة ، يخرج المأساة من عيادة الطبيب ويركزها في الانسان عندما يعلم مصيره !!!!

كانت زينب ترتدي ثوبا اسود قد طرز بالوان عديدة بين الاحمر والاخضر في خطوط متعارضة واتساق الثوب الى اسفل . وكان في قدميها حتى نهاية الساق ، جزمة من المطاط الاسود اللامع ، وفي معصم يدها اليسرى سواران فضيان ، ليسا جديدين البتة ، وعلى رأسها طرحة صغير عسلية اللون ، وفي عينيها بقايا دموع ومزيد من النعاس لا يغالب ، فلما غادرت غرفة الطبيب واوشكت ان تسد الباب المفتوح بين غرفة الطبيب وغرفة الانتظار ، كانت تعرج بشكل ظاهر ، اذ كانت تميل الى اليسار ، وكان السرطان ـ وقد استقر في الفخذ الايسر ـ يدفع زينب لان تتقي الالم الذي يخلفه تثبيت القدم في الارض ودفع الجثة الى الامام . وكان ابوها وعمها والمراة الصامتة برغم تفاوت الانفعال فيما بينهم جميعا ، في ذهول مقيت وقد اسرتهم صدمة ثقيلة اشبه بمرض السرطان .. ما عدا زينب .التي كانت رغم سماعها رأي الطبيب ورغم دموعها ، ثابتة ، ولم يكن ينقصها سوف ان تبتسم ، لتبرأ ، وتؤكد جدارتها بالحياة .

فتح الباب وعاد الصراخ ، بعودة محمود حاملا الدواء المسكن لزينب . ان الدواء حسب رأي الطبيب سوف يتيح لها ان تنام براحة دون الم ، وان ذلك لن يؤخر من النهاية المنتظرة شيئا ذا بال . ودخل محمود علينا ، ووضع الدواء بين يدي الطبيب، فتبعته زينب وابوها والمراة الصامتة . كانت عينا زينب ترمقان الدواء ، وقد فتحتا على نهايتهما ... وكانت هي تحدق في الدواء المسكن ، تعض شفتها السفلى بين الفترة والاخرى ، وتضع يدا على منضدة الطبيب ثم ترفعها ، لتضع الاخرى، وكانت في وقفتها تهتز قليلا .. بينما كانت تعدل من وقفتها بحركاتها هذه تتقى الوقوف على السرطان بالذات !

قام الطبيب مودعا العم .. والاب ، والمراة الصامتة ، رابتا بكفه على كتف زينب في حنان ابوي غامر ، وبابتسامة طيبة ، داعيا ايـاها الى الصبر وتسليم امرها الى الله . وصرخ الباب من جديد ، لآخر مرة وخرج الريفيون الاربعة من العيادة ، كما دخلوا ، ما عدا هذه العلبة التي تحتوي على الدواء المسكن . وحدقت في وجه صديقي فوجدته واجما حزينا . ولكنه ما ان عاد الى كرسيه حتى بادرني بالحديث :

ـ تصور يا فتحي ،مدى العذاب الذي ستعانيه زينب الى ان تموت انهم لو جمعوا آلام السرطان العظمي . الم لا يمكن تصوره .. ولا احتماله انها ستموت . ستموت لا محالة يا فتحي .

فوجدتني استمد من تماسك زينب وقت سماعها الحقيقة من فم الطبيب ، ما يدعني للمناقشة :

ـ ولكن الا تتصور انها ستشفى يا دكتور ؟

فرد علي بلهجة الواثق :

ـ مستحيل

فخالطني شيء من الامل ، ومن ثقة الجاهل بنفسه اذا خاض في موضوع لا يعرفه على حقيقته :

ـ انني لست طبيبا يا دكتور ، ولكنني اعتقد ان زينب ، وقد سمعت بقصة السرطان ، سوف تكون جديرة بالحياة ، وستشفى لان صلابتها كانت اقوى من السرطان . لقد كانت تبتسم يا دكتور . انها ظلت باسمة من ظلال الدموع . الا تؤمن بالامل يا دكتور ؟

فاجابني مبتسما ولكن بابتسامة متألمة :

ـ انت انسان عاطفي .. والسرطان ليس قضية عاطفية بحتة !!

ومد يده الى نسخة مطبوعة من ديوان الخيام ، وبدأ يقرأ علي الرباعيات باصلها الفارسي ثم يترجمها الى العربية ، آملا بذلك ان ينقذ روحه المعذبة من الغرق في محيط الالام . ولكنني في غمرة الحديث لم استطع ان امنع نفسي من الشرود .. دقيقة او دقيقتين ، فسمعت الطبيب يخاطبني :

ـ لا تبك يا صديقي .. كلنا في الحياة « زينب » !!

حلب **علي بدور**

من الاصدقاء